الجليس والأنيس للمعافى بن زكريا القاضي الجريري

سكينة الشهابي



حين يسألنا سائل عن امهات كتب الأدب العربية نجيب على الفور وبدون تردد : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والأمالي لأبي علي القالي هذا ما حفظناه في دراستنا ، حفظنا اياه مدرسونا وحفظناه بدورنا لتلامذتنا. ولم أسمع ولو من قبيل الاشارة العابرة من ذكر : « الجليس والأنيس » للمعافى بن زكريا القاضي ، لم اسمع استاذا من اساتذتي نوه باسم هذا الكتاب وذكر مؤلفه بالاجلال والاكبار ، أو اقترح أن تدرس نصوص منه في مدارسنا ، لأن اخباره الادبية مثلا تعرض بطريقة شيقة وهي حافلة بمفردات اتقن المؤلف عرضها عقب الأخبار منسقة ومشروحة .

بقيت اجهل الكتاب الى أن عملت في تحقيق تاريخ دمشق لابن عساكر فوجدت في أخبار هذا التاريخ كتابا في الأدب يتخذه الحافظ أصلا غير الكتب التي ألفت ، ومؤلفا يعلي من ذكر غير المؤلفين الذين عرفت . توالى أمام بصري اسم المعافى بن زكريا القاضي وتوالت النقول من كتاب أثار اهتمامي ، لأنني وجدت مؤشرا ضخما يدل على قوة شخصية المؤلف وغزارة مادته في اللغة . ووضعت في تفكيري منذ ذلك الوقت أنه كتاب يضاهي « كامل المبرد » و « أمالي القالي » ، والا لما اختاره الحافظ ووضعه في حسابه قبل ذينك الكتابين . ظل ذلك الى أن تم لي التعرف بالكتاب ومؤلفه ، بالكتاب عن طريق تلك القطعة الموجودة منه في المكتبة الظاهرية ، وبالمؤلف بواسطة الكتب الكثيرة التي ترجمت له ونوهت بمؤلفاته الكثيرة ومن بينها « الجليس والأنيس » .

التعريف بالمؤلف :

هو المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد بن حماد ، أبو الفرج النهرواني القاضي ، علم من أعلام القرن الرابع الهجري ، قال عنه الخطيب البغدادي (١) : « كان من أعلم الناس في وقته بالفقه والنحو واللغة واصناف الأدب » ، ونقل عن أبي محمد الباقي قوله : « اذا حضر القاضي ابو الفرج فقد حضرت العلوم كلها .. ولو أوصى رجل بثلث ماله أن يدفع الى أعلم الناس لوجب أن يدفع الى المعافى بن زكريا (٢) » .

قصر المعافى حياته على علم والأدب ، فلم يرغب في منصب ولم تستبد به محبة الجاه والسلطان ، بل ربما كان يدفع المراتب عن نفسه عملا بحديث رسول الله ﷺ وما أكثر ما حذر من السعي الى امارة وانذر الساعي بسوء العاقبة ووبال المصير(٣) ، وربما من أجل ذلك أحبه معاصروه ، وصدقوا في وصفه بما هو أهله ، قال الخطيب البغدادي : « سألت البرقاني عن المعافى فقال: كان أعلم الناس(٤) » . وهذه العبارة يقولها البرقاني تدلنا على المكانة الكبير التي كان يحتلها المعافى في نفوس تلامذته ومعاصريه .

وتحدثنا اخباره انه ولي القضاء بباب الطاق في الجانب الشرقي من بغداد نيابة عن القاضي ابن صبر ، ولاندري متى كان ذلك ولاشك أن مدة توليه هذا المنصب لم تطل ، وظل شغله الشاغل في حياته التفسير والحديث والأدب وكل مايمت الى اللغة والدين بصلة، فلم يصب حظا من الدنيا لانه ما كان يهتم بأن يصيبه . قال الذهبي(٥) : « وقيل : كان قليل الشيء متعففا». واظن أن قارىء الجليس والأنيس يحس بما كان يتمتع



به صاحبه من ثروة علمية وخلقية عالية تعبر عنها تلك التعليقات الكثيرة المتناثرة عقب الاخبار .

كان المعافى احد اثنين في القرن الرابع ، فهو صنو ابي حيان التوحيدي معاصره ، يذكرنا بـه في روعـة الأسلوب وإشراق البيان وفصاحة المنطق ، وقد نسرع الى تفضيلـه على ابي حيان اذا كنـا نميـل الى الأدب واللغة والفقه ولانحب ان نضيع في متاهات التصـوف والفلسفـة .

ويخيل إلي ان نوعا من التعاطف كان يربط بـين الرجلين ، ربما كان ذلك بسبب القاسم المشترك الذي الف بينهما الا وهو الفقر ، حدثنـا ياقـوت قال(٦) : « قال ابو حيان التوحيدي : رايته – اي المعافى – في جامع الرصافة وقد نام مستدبر الشمس في يوم شات وبه من اثر الفقر والبؤس والضر امر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع ادبه، وفضله المشهور ومعرفته بأصناف العلوم ولاسيما علم الاثر والأخبار وسير العرب وايامها، فقلت له : مهلا ايهاالشيخ وصبرا فإنك بعين من اللـه ومرأى منه ومسمع »، هذه العبارات التي نقلها ياقوت واعادها بايجاز الذهبي(٧) توحي لنا بشيء من الود كان يربط الاديبين الكبيرين ، كما انها تلقي ظلالا شاحبة من البؤس على حياة المعافى . وكان حظه من الدنيا لم يكن احسن من حظ ابي حيان ، ولكنه لم يرشاكيا ، ولابرما ساخطا ، كان ذا نفس كريمة وروح راضية ، اذاغضب لايغضب لنفسه ولكنه يغضب لواقع يريد اصلاحـه وأمور يراها معوجة فيسعى الى تقويمها(٨) ، ومن هنا يختلف طريقـه عن طريـق ابي حيان ذاك الذي أحس بمرارة الواقع ، ونظر الى مفاسد عصره فلم يأخذهـا ككل ولكنـه صب سياط غضبـه على افراد استثاروا غضبه ، وحركوا نيران نقمته .

هذا اديبنا المعافى بن زكريا الجُريري الذيناصر مذهب ابن جرير الطبري ونسـج على منوالـه فنسب اليه ، وقد ذكرت المصادر انه الف كثيرا من الكتب ، وذكر له كل من ابن النديم والذهبي تفسيرا في ستـة مجلدات(٩) ، ولم يصل الينا من كتبه سوى الجليس والانيس .

امتدت حياة المعافى على القسم الاكبر من القرن الرابع فقد ولد سنة ٣٠٥ على أصـح الروايات التـي نقلت عنـه وتوفي باجمـاع المراجع في النهروان سنـة ٣٩٠ هـ .

واحب ان اعرف القارىء الكريم بالأصول التـي وصلت الينا من هذا الكتاب وأن استعرض معـه بعض الأخبار فاطلعه على اسلوب المعافى وطريقتـه في عرض الأخبار وتفسيرها علي اضع بين يديه الدليل الكافيعلى اهمية الكتاب وضرورة الاسراع في نشره .

اصول الكتاب :

يوجد في خزانة مخطوطات الظاهرية قطعتان من الكتـاب :

١ – مجلدة تضم خمسـة وعشرين مجلسا مـن المجالس المائة التي يتالف منها الكتاب جاءت بعنوان : « الجزء الثالث من كتـاب الجليس والأنيس من امالي القاضي ابي الفرج المعافى بن زكرياالنهرواني رحمـة الله عليه » .

تبدا هذه المجلدة بالمجلس الثامن والاربعينوتنتهي بالمجلس الثاني والسبعين وتتالف من ١٩٩ ورقـة ذات وجهـين ، وهي جيـدة الخط خاليـة من السماعات



والتعليقات معجمة ومشكولة ولكنها كثيرة التصحيف والتحريف .

رقم هذه المخطوطة في خزانة الظاهرية ٣٢٠١عام/ وهي واضحة البداية والنهاية فيها كثير من الخروم ولايشعر بهذه الخروم توالي ترقيم المخطوطة . اما طريقها فقد جاء في بداية المجلس السادس والستين كما يلي : « اخبرنا الشيخ الامام تاج الدين بهاء الاسلام أبو سعيد ــ ويكنى ابا عبد الله(١٠) ــ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي الحسن مسعود المسعودي قال : انبا الشيخ الامام ابو العز احمد بن عبيد الله ابن كادش العكبري فيما اجازه قال : انبا ابو علي الحسين بن محمد الجازري قال : ... » .

واما ابو العز بن كادش الذي اجاز المسعودي في النسخة : فهو : شيخ ابن عساكر الذي تلقى عنه كتاب « الجليس والأنيس » إذنا ومناولة وقرأ عليه اسناده وقال له : اروه عني . فالطريق اذا هو طريق نسخة ابن عساكر التي استقى منها في تاريخه الكبير ولكنها ليست نسخة ابن عساكر فقد رواها عن ابي العز رجل آخر .

ولاتبدا المجالس في هذه المجلدة بداية واحدة ، فقد نجد في بعض المجالس الرواية المباشرة عن المعافى من غير ذكر اسم الراوي(١١) ، وقد يبدا المجلس ب « أخبرنا ابوعلي محمدبن الحسين بن محمد الجازري قال : أخبرنا القاضي ابو الفرج(١٢) .. » . وربما بدات طرق بعض المجالس بشيخ المعافى مباشرة(١٣) .

والذي يبدو لي أن هذه القطعة من الكتاب نقلت من اصل موثق روى عن ابي العز بن كادش ، وليس من المعقول أن تكون قطعة من الكتاب ذاته الذي اذن بروايته ابو العز لمعاصر ابن عساكر ابي سعيد محمد ابن عبد الرحمن المسعودي .

ب ــ في الظاهرية أيضا مجلس مفرد من مجالس الجليس والأنيس هو المجلس الخمسون جاء برقم ٤٥٥٢ . وهو مستل من نسخة جيدة قديمة كتبت سنة ٥٤٢ .

حـ ــ وهناك ثلاثة أصول لكتاب الجليس والانيس حدثنا الأستاذ أكرم العمري حديثا وافيا عنها(١٤) ، وهي : صورة بالفوتستات موجودة بالمكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد ، واصل مخطوط محفوظ في خزانة أحمد الثالث بتركيا وآخر فيمكتبة الحرم المكي الشريف .

وماذا عن طبع الكتاب :

اصول هذا الكتاب متوفرة بشكل جيد فلماذا لم يطبع الى الآن ؟ سؤال طرحته على نفسي عشرات المرات وانا اسمع الأنباء المتضاربة عن تحقيقه : كان الأستاذ احمد صقر يعمل في تحقيقه منذ فترة طويلة ، وحقق حوالي ثلثه في العراق(١٥) ، وهناك انباء تقول انه يحقق في الهند ...

ولكن لماذا لم يطبع الى الآن ، الا يساوي هذا الكتاب في القيمة كامل المبرد وأمالي القالي وعيون اخبار ابن قتيبة وبيان الجاحظ . وفي اعتقادي انه يفوق هذه الكتب في غزارة المادة التي يضمها بين دفتيه وفي طرافة

عرضه للمادة اللغوية ، وفي سعة الفترة التي يروي عيون اخبارها . ثم ان اسم المعافى في عالم الأدب والنحو والفقه ليس أقل إشراقا من اسماء اولئك الاعلام الذين الفوا قبله (توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ ، وابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، والمبرد سنة ٢٨٥ ، والقالي سنة ٣٥٦) .

انني لا اجد سببا في حبس هذا الكتاب عن ايدي القراء الا المصادفة المحضة فهل نسمح للمصادفة ان تحرمنا من علم كثير وثروة لغوية نادرة قد لايسهل علينا هضمها وابتلاعها من غير كتاب المعافى لانها ستعرض بطريقة معجمية تجعل القارىء غير الباحث زاهدا فيها منصرفا عنها .

ولعل الأوان قد حان أن يخرج هذا الكتاب بحلة جديدة ونحن نعمل في بعث تراثنا والتنقيب عن مخبآته في زوايا المكتبات كخطوة اولى في الوصول الى سابق عزمنا وسالف حضارتنا .

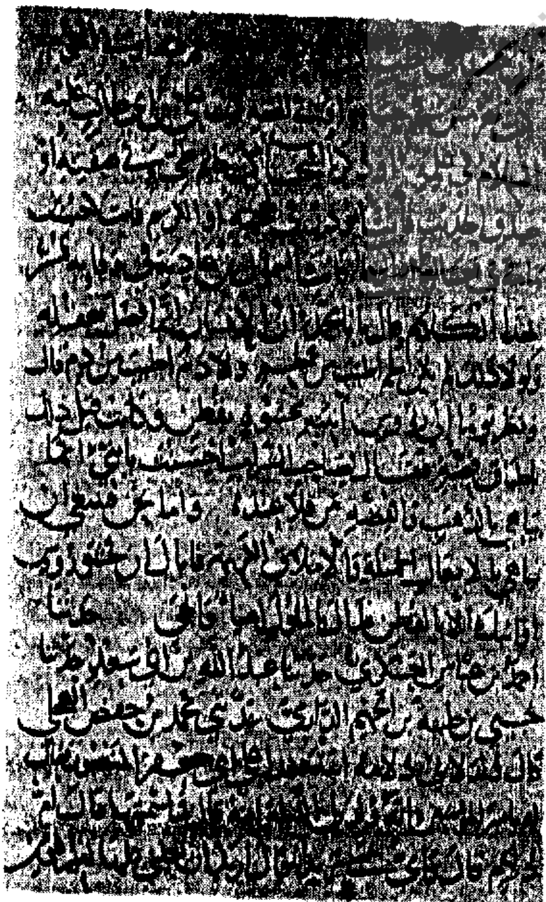
اهمية الكتاب ومنهجية المعافى في عرض مادته :

نوهت المصادر القديمة بمؤلفات ابي الفرج الجريري ومن بينها كتابه هذا ، فقد وصفه ابن النديم بانه من خير كتبه وقال : « يذكر فيه فضائل جمة واخبارا مستحسنة وغير ذلك من الفوائد(١٦) » .

والحقيقة ان للكتاب اهمية كبيرة فهو حافل بالاخبار الأدبية الطريفة والأشعار المستملحة والنوادر التاريخية والشروح اللغوية ، ولانغالي حين نقول انه يعطينا صورة حية صادقة لجوانب من الحياة العربية قلما جادت بها مصادرنا الاخرى التاريخية والادبية بالاضافة الى الشروح اللغوية المستفيضة والتعليقات الادبية النفيسة التي تؤكد لنا ان المعافى لم يكن رجل لغة ونحو وانما كان اديبا ذواقة يميز بين النصوص ويفاضل ويقارن ليضع يدنا على مواطن الجمال . ولعلنا نلمح بعض هذا في عرضنا نماذج من الكتاب .

لايجد قارىء الجليس والأنيس موضوعا سار عليه مؤلفه ، ولكنه قسمه تقسيما هندسيا يذكرنا بكتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي معاصر المعافى، فالكتاب مائة مجلس وكل مجلس من هذه المجالس يبدؤه المعافى بحديث يرويه عن الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر ماجاء فيه من الغريب ثم يسترسل فيما شاء الله له من اخبار لاتقيده في ذلك وحدة الموضوع الا ما جاء عفو الخاطر كما جاء في الباب الحادي والسبعين حيث ربط بين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغناء وبين خبر طويل عن المغني اسماعيل بن جامع نفيد منه ان الرشيد كان ذواقة للغناء يشجع المغنين ويبعد عنهم الفاقة والعوز ويكفيهم السعي في طلب الرزق ، وكأني بالمعافى اراد حين قدم هذا الخبر – ان يقارن بين حال الأدباء والعلماء وما كانوا يلقون من رعاية وتكريم في عصر الرشيد وبين البؤس والفاقة التي كانوا يعانون منها في القرن الرابع يقول : « فرأيت ان أرسمه هاهنا اذ هو مما يستحسنه ويصغي الى استماعه ذوو الفضل من الأدباء ، وينشط للوقوف عليه اولو الحجى من الرؤساء » .

والحقيقة اننا نخرج من الخبر وملء اسماعنا وابصارنا صور من حضارتنا العربية ومجالس انسها ؛ وربما اغمض احدنا عينيه علّه يفلت من عنصر الزمن



فيعيش ، ولـو فتـرة قصـيرة في ذلك العز المسيطـر والحضارة الوارفة ، أو يسمـع على الاقـل صوت ابن جامع ، هذا الذي احيا الرشيد ووزيره جعفر ليلهمـا في الاستماع اليـه .

والمعافى لاينسى تفسير الالفاظ الغريبة كلما وجد ضرورة لذلك ، ويستعرض في تفسيرها امثلة من الشعر والحديث والقرآن الكريم، وهو في ذلك تلميذابن قتيبة، وبما كان ذلك عن قصد منـه أو عن غـير قصـد ، وفي اعتقادي ان طريقته هي الطريقة المثلى لأستاذ العربيـة في عصرنا الحاضر إن احسن استخدامهـا ، وتمكن مـن السير على نهجهـا ، فاحدث المناهج التربويـة تنـادي بطريقة المعافى من غير ان تدري ، إنه استاذ العربيـة الأصيل وابو بجدة تلك الدروس النموذجية التي ينادي بها اساتذة التربية . وحبذا لو اتسع المقال لاعرض على القارىء بعض اخبـار المعافى كاملةليحس باللـذة التي احس بها ، ولكن المقـال لايتسع لاستعراض النمـاذج الكاملة لذلك اكتفي بعرض المقتطفات واحيله الى المصدر عـل اصواتا كثيرة تنضـم الى صوتي مطالبـة بطبـع الكتـــاب .

يروي لنا المصنف في المجلس الثاني والسبعين خبر رجـل اشتهى الحلوى فخرج الى الطريق فاذا : « .. اخاوين حلوى فنودي : يا اسماعيل هذا الذي اشتهيت وان تركته خير لك .. » وبعد ان ينتهي المعافى من سرد الخبر يقول : « قوله : اخاوين حلوى ، يقال لما يجعـل عليه الطعام قبل جعله : خوان ، فاذا جعل عليه فهـو مائدة ، فاذا رفع الطعام عنه عاد الى تسميته : خوانا. وزعم بعضهم أن المائدة انما تسمى بهذا الاسم اذا خف ماعليها من الطعام لانها حينئـذ تميـد .. » . وقـال بعضهم : الخِوان بالكسر كلام العـرب ، وهـو خُوان بالضم باللسـان الفارسي ، وروي لنـا عن الفراء الكسر والضم في الخوان من كلام العرب وجمعه اخاوين مثـل سِوّار واساوير . ويجمـع السوار ايضـا على اسورة واساورة ، والهاء في اساورة عوض عن الياء في اساوير، وذكر نحو هذا سيبويه في زنديق وزنادقـة ... وقـال الأخفش في قوله تعالى : فلولا القي عليه اساورة » لأنه جمع اسوار واسورة ... قال القاضي : وقد قال الله جل ذكره : « وحلو اساور من فضـة ، وقال تعالى : يحلون فيهـا من أساور من ذهب فأتى الجمـع هاهنا على أساور . وحكى ثعلب أن الفراء قال : اسورة جماعة سوار للذي في اليد يضم ويكسر » .

ويقيني أن القارىء لـن ينسى ابـدا معنى كلمـة الخوان ولن يخطىء في جمعها ، ولن ينسى الامثلة التي ضربهاالمعافى لقياسهذا الجمع. ولورجعنا الى معاجمنا ولنأخذ اكثرها تفصيلا وامثلة الا وهو لسان العرب . حين نستعرض مادة « خون » في اللسان لانجد فيها هذا التفصيل الدقيـق « للخوان » وجموعه وماجـاء عـن العلماء فيه هذا بالاضافة الى أن قارىء الخبر يشعـر كأن التفسير جاء طلبا منه فلا يجده ثقيلا مملا جافا لانه كان نابعا من الخبر احتجنا اليه في معنى اللفظة فعرفنـاه وعرفنا موضـع استعماله .

وليس تعقيب المعافى على الاخبار تعليقات ادبيـة وشروح لغوية فقط ، لقد عودنا أن يكون معلما ماهـرا يعطي لكل مقام مقاله المناسب ويعقب على كل خبر بمـا يحتاج اليه طالب العلم النهم .

يبـدأ المعافى في مجلسه الخمسين بحديـث عـن الرسول صلى الله عليه وسلم معناه أن رجلا دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : استعملني فقال : « إنا لانستعمـل على عملنـا من طلبـه ، ولامن حرص عليه » . ويعقب المعافى : « تأملوا رحمنا الله واياكـم ماورد به هذا الخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم فـي اخباره انه لايستعمل على الناس من طلب العمل عليهم، ولا من حرص على ولاية أمورهم ، لأن من سأل هـذا وحرص عليه لم يؤمن زيغه عن العدل في من يلي عليه ، ومحاباته لمن يوليه، وشفاء غيظه ممن يعاديه والاستطالة بما بسط فيـه على من بسط عليـه فيجور في حكمـه ويستعين في سلطانه على ظلمه » .

ارانا اي اسلوب بسيط واضح بعيد عن التكلف فسر به قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبمعنى آخر ارانا هذا الثوب من الالفـاظ والتراكيب الـذي البسه المعافى لمعانيه ، كانت المعاني شافية وافيـة ، وكانت الالفاظ رداء ليس بالواسع الفضفاض ولا بالضيق الحرج ، لم تثقله الصنعة ، ولم يخل من التانق والذوق، وكان هذا الاسلوب اخرجته يد صناع عملت فيه بآلة سحرية فبدت فيه السهولة الممتنعة التي تستسلم لكل قارىء وتعجز كل كاتب ، وهي البلاغة التي وصفها ابن المقفع بقوله : « اذا رآها الجاهل ظن انه يحسن مثلها ».



بهذا الاسلوب البليغ يقيس المعافى بجراة ماورثنا إياه الرسول الاعظم والسلف الصالح بما يراه ويسمعه ، ويقول معقبا : « والى الله المشتكى مما نراه في زماننا هذا من غلبة السفلة والجهال والسخفاء الضلال للاحكام ، وإجلاسهم مجالس الائمة الاعلام ، مع عظيم جهالتهم ، وسقوط عدالتهم ، وفساد امانتهم ، وقبح الظاهر والباطن من امرهم ، والله ولي الانتقام ممن يطوي في هذا الباب نصيحة الامام ويسعى الى مايساق اليه من الاحكام في حد شريعة الاسلام ، ونستعين بالله على تمكيننا من إيضاح هذا الامر وانهائه الى من اليه الامر ، من ساسة الامة ، ومدبري الملة » .

والمعافى في اسلوبه اللفظي يذكرنا بمعاصره ابي حيان التوحيدي ، فهو واضح العبارة ، مشرق الديباجة ، حريص في جمله على نوع من التناغم الموسيقى ، والتآلف الصوتي ، اما في المنهج الفكري فان طبيعة عالم اللغة والادب تختلف عن طبيعة الفيلسوف .

يقول المعافى(١٧) معلقا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اي الخلق اعجب ايمانا » : « قال القاضي فالحمد لله الذي هدانا لدينه والايمان بنبيه ، وتصديقنا بكتابه ووحيه ووفقنا لموالاة من تقدمنا من السابقين الاولين وتابعيهم باحسان من السلف الصالحين وبصرنا فضل ائمتنا الخلفاء الراشدين المهديين الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » . من هذا المقطع يتضح لنا ان المعافى كان على سنة السلف الصالح وهديهم ينكر على من عاداهم ولا يتعصب لبعضهم على بعض .

ويلاحظ كل قارىء لاخبار الكتاب وتعقيبات المعافى عليها ان المؤلف كان يتبع منهجا موضوعيا ، ولكنه لايستطيع ان يتخلى عن نزعة هاشمية تبدو واضحة في كثير من اخبار الكتاب ، ففي اكثر من موضع نسمع ثناءه على بني هاشم وتعريضه السافر ببني امية ، بل إنه يصل الى اعتبار فضائل بني هاشم وعيوب بني امية من الامور البديهية يقول(١٨) « ولو شرعنا في استقصاء هذا الباب ـ يريد بذلك باب تعداد مزايا بني هاشم الحميدة وفضائلهم ـ واحصينا مايوجد فيه من مناقب الهاشميين ومعايب الامويين لاصبحنا الى انشاء كتاب فضلا عن الاقتصار على باب » ومن المؤسف حقا ان خرما في الكتاب حال بيننا وبين معرفة الاخبار التي كان يرويها عهد بني هاشم وبني امية ، ولكن الاخبار المتفرقة في المجلدة التي بين يدي وما رواه ابن عساكر من اخبار نقلا عن اقسام الكتاب التي ليست بين يدي تدلنا بوضوح على قناعة الرجل التامة بما يقول وتبين ذلك الهوى الهاشمي الذي لم يستطع اخفاءه .

يروي المعافى(١٩) أن عبد الملك بن مروان طلب من الشعبي أن ينشده احكم ماقالت العرب فينشده مجموعة من الابيات يقول عبد الملك بعد سماعها : « حججتك ياشعبي » يقول طفيل الغنوي :

ولا اخالس جاري في جليلته
ولا ابن عمي غالتني إذا غول
حتى يقال اذا وليت في جدث
أين ابن عوف ابو قرّان مجمولُ

قال القاضي ابو الفرج : بيتا طفيل اللذين انشدهما عبد الملك وفضلهما وزعم انه حج الشعبي ، من اشعار الشعراء غير مقصر عنهما ، ومن تامل ماوصفنا وجده على ماذكرنا من غير ان يحتاج الى تكلف تفسير ذلك واطناب الاحتجاج له » . وسامع قول المعافى هذا لايسعه إلا ان يقول : ان الحق معه فقول طفيل لايمكن أن يقف لاقوال اولئك الشعراء الذين استشهد بهم الشعبي ، ولكنه حين يتامل عبارة المعافى وقوله عن عبد الملك : « وزعم انه حج الشعبي » ، يلاحظ شيئا من التحامل على الخليفة الاموي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هذا الخبر نقله ابن عساكر عن غير المعافى ، ولم نجد بين من روى الخبر احدا عاب ذوق عبد الملك او سفه حكمه ، واين موقف المعافى هذا من موقفه من المامون مثلا(٢٠) والاشادة بكل مايصدر عنه من قول أو فعل ، ومن قوله في الرشيد معلقا على استحسانه لهذه الابيات لأبي عبد الله بن مصعب الزبيري(٢١) :

وإني وإن قصرت عن غير بغضة
مراع لأسباب المودة حافظ
وانتظر العتبى واغضي على القذى
الاين طورا امره واغالظ
وانتظر الاقبال بالود منكم
واصبر حتى اوجعتني المغائظ
وجربت مايسلي المحب على الهوى
واقصرت والتجريب للمرء واعظ



قال القاضي رحمه الله : ولعمري إن هذه الأبيات لمن مستحسن الشعر في معناها ، واعجاب الرشيد بهـا مما يثني على خلوص أدبـه وصفاء قريحته » . لقـد حدثنا المعافى بان هذه الابيات جيدة المعنى ولكنه لم يعلق على المبنى لان ذلك التعليق سيكون صادقا ، وسيضعف من ثنائه على الرشيد وحسن انتقائه ، وليت شعري لو كان المستحسن لهذه الأبيات عبد الملك فمـاذا سيقول وقتها المعافى ؟

والجدير بالذكر ان المعـافى قد احسن انتقـاء الاخبار التاريخية والنوادر الادبيـة التي فضلت بني هاشم في الشرف والشجاعة ، ولعـل من افضل هـذه الاخبار مانقله ابن عسـاكر في تاريخه عن المعافى(٢٢) في اخبار عبد الله بن جعفر مما لانعثر له على ذكر في الكتب الادبية المعروفة ولا اريد ان اقتبس بعض هذه القصـة خشية ان افقدها روعة العرض الذي قدمها به المعافى وأنى لي في هـذه الاسطر أن آتي عـلى تلك الجولات التاريخيـة واللغوية التي جالهـا وهو يفسر الالفـاظ ويستحضر في تفسيره لها الامثلة والشواهد .

ورغم هذه النزعة الهاشمية التي عرضنا نماذجمنها في هذا المقال تظل النزعة العلمية الموضوعية غالبة على الجليس والأنيس فتطالعنا فيه من حين الى آخر اخبار نجد انفسنا باشد الحاجة اليها ونحن بخلو وجه ماضينا المشرق . ولعل خير ماأختم به مقـالي هذا الخبر الذي رواه ابن عساكر في التاريخ(٢٣) عن الجليس والأنيس :

« وفد عبد الله بن جعفر على معاوية بن أبي سفيان فأنزله في داره ، فقالت له ابنة قرظة امرأته : إن جارك هـذا يسمع الغناء ، قال : فاذا كان ذلك فاعلميني فأعلمته ، فاطلع عليه ، وجارية له تغنيه وهي تقول :

إنـك والله لـذو مَلةٍ يطرفك الادنى عن الأبعد

وهو يقول : ياصدقاه . قال ثم قال : اسقني ، قالت: ما أسقيك ؟ قال : ماء وعسلا . قال : فانصرف معاوية وهو يقول : ما ارى باسا . فلما كان بعد ذلك قالت له : إن جارك هذا لايدعنا ننام الليل من قراءة القرآن ، قال: هكذا قومي رهبان بالليل ملوك بالنهار » . لقد صـدق الخبر في تصوير معاوية فاذا هو الخليفة الكبير ينصف ابناء عمومته ويسهر على رعايتهم واكرامهم ، وهنـاك اخبار كثيرة تصور جرائهم عليه وحلمه معهم مما يمكن ان يكون ملحمة رائعة تحكي سيرة هذا الخليفـة الكبير وحسن سياسته للامور .

وبعد اليس من حق هـذا الكتاب ان يطبع لقـد احسـنا باهميتـه من النواحـي اللغويـة والادبيـة والتاريخية ورأينا أن طريقته في عرض المادة اللغويـة كانت جيدة لانها تسهل على القارىء هضم هذه المـادة وتسوغ له طعمها وهذا مالم نألفه في كتب اللغة المعروفة ولم تحسن استعماله كتب الادب كما احسن المعافى . واذا اضفنا الى هذا مكانة المعافى في القرن الرابع الهجري والمنزلة التي وضعه فيها معاصروه وفي مقدمتهم أبـو حيان التوحيدي ، وتـلامذته وفي مقـدمتهم ابو بكـر البرقاني شيخ الخطيب البغدادي ايقنا بالضرورة الملحة التي تستحثنا لاخراج هذا الكتاب .

---

(١) انظر تاريخ بغداد ٢٣٠/١٢

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر المجلس الخمسين ورقة ١٤ ب

(٤) انظر تاريخ بغداد ٢٣٠/١٣

(٥) انظر تذكرة الحفاظ ٢٠٤/٣ .

(٦) انظر معجم الادباء ١٥١/١٩

(٧) انظر سير الاعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٨ .

(٨) انظر الجليس والانيس المجلس ٥ ورقة ١٤ ب

(٩) انظر الفهرست ٢٣٦ وتذكرة الحفاظ ١٥١/٣ .

(١٠) هو الفقيه اللغوي المسند تاج الدين ابو عبـد الله وابـو سعيد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودي المروزي الصوفي ولد سنة ٥٢٢ هـ ، وتوفي سنة ٥٨٤ هـ ، اجاز له ابو العز ابن عادش . انظر سير اعلام النبلاء ٤٠/١٣ .

(١١) انظر المجلس الثامن والاربعين .

(١٢) انظر المجلس الستين .

(١٣) انظر المجلس الحادي والخمسين .

(١٤) انظر موارد الخطيب البغدادي ٢٤١ .

(١٥) حقق السيد محمد مصطفى ارسلان حوالي ثلث الكتاب في رسالته للماجستير . انظر موارد الخطيب البغدادي ٢٤١ .

(١٦) انظر الفهرست ٢٣٦ .

(١٧) انظر المجلس الحادي والخمسين .

(١٨) انظر الورقة ١٩٩ المجلس ٧٢ .

(١٩) انظر الجليس والانيس ورقة ٢٤ ، والمطبوع من تاريخ دمشق عاصم — عايد ص ٢٠٢ .

(٢٠) انظر على سبيل المقال ورقة ١٠٠ من الجليس والانيس .

(٢١) انظر الجليس والانيس ورقة ١٩٤ م ؟

(٢٢) انظر المطبوع من تاريخ دمشق ص ٣٦ (عبد الله بن جابر — عبد الله بن زيد) ، والجليس والانيس من ١٤٣ .

(٢٣) انظر تاريخدمشق ٣٣ (عبد الله بن جابر — عبد الله ابن زيد).

